

من تراث العرب العلمي . . .

في الحقل الزراعي

مشاريع الري والزراعة في صدر الاسلام

بقلم

الدكتور عرار عبد المجيد لا عظمي

أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد

كلية الآداب - جامعة بغداد

يمر القطر العراقي في الوقت الحاضر بحركة استصلاح زراعية كبرى . وقد أنجزت فيه فعلاً مشاريع عديدة في هذا الميدان ، وهو سائر قدماً نحو تنفيذ المزيد منها . هادفاً من وراء ذلك السير بهذا الثالوث الزراعي المقدس :

الماء ، والأرض ، والفلاح

نحو تحقيق مستقبل أفضل ، ومجتمع أمثل

وقد كان لهذه الحملة الاستراعية - التي يشهدها قطرنا - العامل الأساس الذي دفعني الى كتابة هذا البحث التاريخي المركز في جانب حيوى من جوانب تراثنا العلمي الزراعي -- جانب مشاريع الري ، هادفاً من وراء ذلك إعطاء خلفية تاريخية لماضي الحضارى المزدهر . . . فما دمنا نعيش في حركة بعث وإحياء تراثنا ، وجب علينا -- نحن المؤرخين -- أن نجعل من دراستنا التاريخية ، مادة تراثية حية ، مليئة بالحركة ، والنشاط ، والعمل

فدراسة التراث عندى . والكتابة فيه ، ليست مجرد سرد نصوص تاريخية جامدة ، أو عرض صور كلاسيكية قديمة ، وإنما هي إبراز هذه النصوص ، وتقديم هذه الصور ، وصبها جميعاً في أسلوب محرك خلاق . . . وبهذا يكون بعث تراثنا رمز أمل وإنطلاقة عمل . . .

وقد آلفنا أن يكون محور بحثنا هذا في فترة مبكرة من فترات التاريخ العربى — الاسلامى . فأطلقنا عليها : « عصر صدر الاسلام » « Era of Early Islam » . والذي اصطلح عليه أن يتناول فى دراسته عصر الرسول (ص) ، والعصرين الراشدى والأموى ، أي فى الفترة الزمنية ما بين : (١ هـ — ١٣٢ هـ / ٦٢٢ م — ٧٥٠ م) ..

ولما كانت المياه — مهما تعددت مصادرها — ذات أهمية كبرى فى حياة الشجرة ، والتربة التى تنمو عليها ، والفلاح الذى يرعاها ، لذا استوجب من الانسان والدولة بذل أقصى الجهود فى تنظيم هذه المياه ، وتخزينها ، وتوزيعها وتصريفها ، وإبتكار الوسائل والطرق العديدة فى مجالات السقي والارواء ، فنشأ عن كل ذلك ما ندعوه بإنشاء مشاريع ري متعددة

وعليه — فسوف نحاول هنا إبراز مدى إهتمام العرب المسلمين بهذا العنصر الحيوى — الماء — مبتدئين بعصر الرسول (ص) ..

عصر الرسول (ص) — (١ — ١١ هـ — ٦٢٢ — ٦٣٢ م :

أولى الرسول (ص) عناية فائقة بالماء وفى وسائل السقي والارواء كما إهتم (ص) إهتماماً كبيراً بأحياء الأرض ، وخاصة الموات منها .. وقد تجلّى ذلك بكل وضوح بالآيات القرآنية الكريمة . والأحاديث النبوية الشريفة ..

فرغم أن شبه الجزيرة العربية عديمة الأنهار . لكن الطبيعة أنعمت عليها بكثرة ينباع ، والعيون ، والأبار ذات المياه العذبة . وقد أشاد القرآن الكريم بآياته بعذوبة هذه المياه ، وأهميتها فى السقي والارواء . وميزها عن المياه المالحة المضرة .. ومن ذلك جاء قوله تعالى :

« هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » (١) ، وفى آية قرآنية كريمة أخرى « وأستقيناكم ماءاً فراناً » (٢) ..

وقد إعتبر الرسول (ص) الماء ملكاً عاماً مشتركاً بين الناس . إضافة الى الكلاً

(١) سورة الفرقان ، آية — ٥٣ .

(٢) سورة المرسلات ، آية — ٢٧ .

والنار (٣) . يروى عنه قوله (ص) : « الناس - وفى رواية أبى يوسف - المسلمون - شركاء فى الماء والكلا والنار » (٤) وهذه قاعدة عامة وضعها الرسول (ص). كما وضع الرسول (ص) قاعدة عامة أخرى ، وهي قاعدة عدم منع الماء فى حالات الكلا ، والبيع ، والشرب . يذكر أبو يوسف : أن الرسول (ص) قال : « لا تمنعوا كلاً ولا ماء ولا ناراً ، فإنه متاع للمغلوبين ، وقوة للمستضعفين » (٥) . . وقد رويت عن الرسول (ص) أحاديث أخرى بهذا الخصوص ، فمن قوله (ص) : « لا يمنع فضل ماء ليمنع به الكلا » (٦) . . وفى حديث آخر : « ولا يمنع نفع البئر » (٧) . . وعن عائشة ، أن الرسول (ص) ، نهى عن بيع الماء (٨) ، وقال (ص) « إن ابن السبيل أول شارب » (٩) . .

والى جانب هاتين القاعدتين العامتين ، نجد أن الرسول (ص) قد وضع أسساً عامة أخرى ، منها : عدم الاضرار بمصلحة الغير من جهة ، وتحديد مساحة البئر والعين فى إرواء الأرض ، وسقي الماشية من جهة أخرى . .

فلا يحل لمسلم أن يتعمد أرضاً لمسلم أو ذمي ليهلك حرثه فيها ، يريد بذلك الاضرار به . . وقد نهى الرسول (ص) عن الضرر ، وقال : « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » (١٠) . وقد نهى الرسول (ص) عن الضرر ، وقال : « لا ضرر ولا ضرار فى الاسلام » (١١) وقال أيضاً : « ملعون من ضار مسلماً أو غيره ملعون » (١٢) .

(٣) الكلا : ما لم ينصب فيه أحد بحرث ولا غرس ، ضرورى للمواشى والأغنام . الماء : ضرورته عامة .

النار : ولعل المقصود بها الخطب الذى يستعمل للوقود .

(٤) أنظر : أبو عبيد ، القاسم بن سلام ، كتاب الأموال ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ص ٢٦٥ . وأبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٩٧ . . .

(٥) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٩٧ .

(٦) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ص ١٠٠ .

(٧) أنظر : نفسه ، ص ٩٩ .

(٨) أنظر : نفسه ، ص ٩٩ .

(٩) أنظر : نفسه ، ص ٩٩ .

(١٠) أنظر : نفسه ، ص ٩٩ .

(١١) أنظر : نفسه ص ٩٣ .

(١٢) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١٠٠ .

ولما كانت الآبار والعيون تشكل المصادر المائية الأساسية في شبه الجزيرة العربية ،
لذا أولى الرسول (ص) عناية كبيرة بتحديد مساحتها ، وكيفية استملاكها . . .

فقد ورد : أنه إذا إحتقر رجل بئراً في غير حق مسلم ولا معاهد ، وكان له حولها
أربعون ذراعاً ، إذا كانت للماشية ، فإن كانت للناضح ، فلها من الحريم ستون
ذراعاً ، وإن كانت عيناً فلها من الحريم خمسمائة ذراعاً ، وقد قال الرسول (ص) :
« بشر الناضح ستون ذراعاً ، وحريم العين خمسمائة ذراعاً ، وحريم البئر العطن أربعون
ذراعاً عطناً للماشية » (١٣)

وبذلك يكون الرسول (ص) قد شجع وسمح لمن لا يمتلك بئراً أو عيناً
بامتلاكها ، شريطة أن تكون خارج نطاق الآبار والعيون المحدودة مساحتها أعلاه ، وبهذا
تحديد للملكية الصغيرة ، وعدم الاضرار بها .

وفيما يتعلق بوسائل الارواء وطرقها ، فقد راعى الرسول (ص) بينها وبين مقدار
الضرائب الزراعيه المفروضة على الأراضي ، وفقاً لمختلف وسائل الارواء وتعددتها . .

يذكر البلاذري - فتوح البلدان - : « أن الرسول (ص) : فرض على أهل
اليمن ، فيما سقت السماء ، أو سقي غيلاً العشر ، وفيما سقي بالغرب والداليه نصف
العشر . وقالوا « الغيل » السبح ، والغرب (الدلو) ، ويعنى ما سقي بالسواقي والدوالي ،
والدواليب والغرافات . . (١٤)

وبهذا فرقت الشريعة الاسلامية ، كما ورد في أحاديث الرسول (ص) مما سقي
بالآلات من دلاء وسواقي ، فجعلت فيه نصف العشر ، وبين ما سقي من غير إستعانة
بها ، فجعلت فيه العشر ، لما أن في الأول من نفقات على الزراع ، لم ينفق مثلها الثاني .

إحياء الأراضي

إن إهتمام الرسول (ص) البالغ بالمياه ومصادرها من عيون وآبار ، ووسائل

(١٣) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ١٠٠ - ١٠٣ .

(١٤) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، مصر ، ١٩٥٩ ، ص ٨٢ ، ويحيى بن آدم ، كتاب
الخراج ، ص ١١٢ و ١١٥

الاوراء وطرقها كان له أثره الكبير فى إحياء مساحات واسعة من أراضي شبه الجزيرة العربية ، خاصة أراضي الموات منها . . كما كانت - فى الوقت نفسه - عاملاً قوياً ، ودافعاً كبيراً لخلفاءه من بعده فى السير على هديه ، وتنفيذ ما وضعه من أسس وقواعد يؤيدها الخصوص .

وقد قدمت لنا مصادرنا الأولية ، شرحاً دقيقاً وجليلاً ما هو المقصود من أحياء أراضي الموات ، وتحديد مواقعها . .

يذكر يحيى بن آدم فى كتاب الخراج - فى تحديد معنى إحياء الأرض ، « وذلك بأن يستخرج فيها عينا أو قليلاً ، أو يسوق إليها الماء ، وهي أرض لم تزرع . ولم تكن فى يد أحد قبله ، يزرعها أو يستخرجها حتى تصلح للزراع ، فهذه لصاحبها أبداً » (١٥)

ويوضح أبو يوسف - فى كتاب الخراج بشكل أكثر معنى وتحديداً أراضي الموات وإحياءها فيقول : « فإذا لم يكن فى هذه الأرضين - أراضي الصلح والعنوة - أثر بناء ولا زرع ، ولم تكن فيئاً لأهل القرية ، ولا مسرحاً ، ولا موضع مقبرة ، ولا موضع محتطبهم ، ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم ، وليست بملك لأحد . رلا فى يد أحد ، فهي موات ، فمن أحيها أو أحيا منها شيئاً فهي له » (١٦) . .

وقد شجع الرسول (ص) كل من يقوم بإحياء أرض الموات وزرعها على تملكها ، كما منع كل ظالم من التعدى على صاحب الأرض التى قام بإحياءها . فمن ذلك قوله (ص) : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له ، وليس لعرق (١٧) ظالم حق . » (١٨) . .

كما شجع الرسول (ص) ، كل من يحيي أرضاً ميتة على تملكها ، يزرعها ، ويزارعها ، ويؤاجرها ، ويكرى منها الأنهار ويغمرها بما فيه مصلحتها . . (١٩)

وقد أذن الرسول (ص) بامتلاك الأرض التى يقوم صاحبها بإحياءها ، فيروى عنه قوله (ص) : « من أحيا أرضاً فهي له . . فهذا إذن من رسول الله (ص) فيها للناس ،

(١٥) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٨٦ .

(١٦) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(١٧) العرق : الظالم ، هو أن يحيي بالرجل الى أرض قد أحيها رجل قبله ، فيغرس فيها غرساً غصباً ، أو يزرع ، أو يحدث فيها شيئاً يستوجب به الأرض .

(١٨) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٦٤ . ويحيى بن آدم ، ص ٨٠ .

(١٩) أنظر : نفسه ، ص ٦٥ .

فإن مات فهي لورثته . . وله أن يبيعها إن شاء » * *

لقد كان لجميع هذه الأسس والقواعد التي وضعها الرسول الأعظم (ص) ، حافظاً أساسياً ، ودافعاً كبيراً لخلفاءه من بعده . لأن يسيروا على هديه . ولأن يبتكروا ، ويضعوا أسساً وقواعد جديده تبعاً للظروف الجديدة التي واجهتهم . . وهذا ما سوف نكشف عنه من خلال هذا البحث وهذه الدراسة .

العهد الراشدى ١١ هـ - ٤٠ هـ - ٦٣٢ م - ٦٦١ م

واجه الخلفاء الراشدون ظروفًا جديدة . لعبت دوراً هاماً في التحولات الزراعية والاصلاح الزراعى . . ويمكن حصر هذه الظروف فى اتجاهين جوهريين . .

الاتجاه الأول :

ويتمثل فى تحرير العرب المسلمين لمساحات واسعة من الأراضى خارج نطاق شبه الجزيرة العربية ، شملت كلاً من العراق . والجزيرة (الفراتية) ، والشام ، ومصر . ومناطق أخرى من بلاد فارس . . .

الاتجاه الثانى :

ويتمثل فى سيادة أنظمة وتقاليده ساسانية وبيزنطية . كانت متغلغله فى هذه الأقطار التى شملها الفتح الاسلامى . . فكان على الخلفاء الراشدين مجابهة هذه الأنظمة والتقاليد ، والعمل من أجل التوفيق بينها وبين ما كانوا يحملون من مبادئ اسلامية ، وإقتصادية ومالية وإجتماعية ، وسوابق أرسى قواعدها لهم الرسول (ص) . . وقد تركزت هذه السياسة التوفيقية على كاهل الخليفة الراشدى الثانى عمر بن الخطاب (١٣ هـ - ٢٣ هـ - ٦٣٤ م - ٦٤٤ م) . .

ذكرت الأسى والقواعد التى وضعها الرسول (ص) بخصوص تنظيم المياه . . ولقد سار الخليفة عمر بن الخطاب على خطة الرسول ، فى جعل الماء ملكاً عاماً ومشتركاً بين جميع الناس ، وعدم منعه أو بيعه وعدم منع إبن السبيل من الشرب ، وفى عدم إحداث ضرر بمصلحة الغير . . فيروى عن عمر قوله : « المسلمون جميعاً شركاء

* * : أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٨٦

فى دجلة والفرات ، وكل نهر عظيم نحوها أرادوا يستقون منه ، ويستقون الشفة والحافز والخف ، وليس لأحد أن يمنع ، ولكل قوم شرب أرضهم ، ونخلهم ، وشعيرهم . لا يحبس الماء عن أحد دون أحد ، وإن أراد رجل أن يكرى نهراً فى أرضه من هذا النهر الأعظم ، فإن كان فى ذلك ضرر فى النهر الأعظم ، لم يكن له ذلك . ولم يترك بكرىه ، وإن لم يكن فيه ضرر ترك بكرىه » (٢٠)

وعن عمر قوله : « ابن السبيل أحق بالماء من الثانى (٢١) عليه . » (٢٢) وفى مجال سقى الأرض وإروائها وعدم منعه عنها ، تروى عن عمر أحاديث بهذا الخصوص منها : « كانت هناك أرض لرجل من الأنصار لا يصل إليها الماء إلا فى حائط لمحمد بن مسلمة ، فأبى محمد أن يدع الماء فى أرضه ، فقال له عمر : أعليك فيه ضرر ؟ قال : لا ، قال : فوالله لو لم أجد له ممرّاً إلا على بطنك لأمرته . . » (٢٣) . وفى رواية أخرى : « أن رجلاً سأل عمر بن الخطاب عن ماء من ماء السماء يسوقه الى أرض له ، فأعطاه أياه ، وكان بين أرضه وبينه أرض محمد بن مسلمة ، فأبى محمد أن يدعه ، فقال له عمر : لو لم أجد له إلا بطنك لأجريته عليه » (٢٤) . . .

وقد شجع عمر بن الخطاب على إحياء أرض الموت ، وإعترها ملكاً لصاحبها . فقد كتب الى الناس : « من أحيا مواتاً فهو أحق » (٢٥) . . . كما قال : « من أحيا أرضاً مواتاً ليست فى يد مسلم ولا معاهد فهي له » (٢٦) وقوله أيضاً : من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين فلم يعمرها فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها » (٢٧) . وذلك أن قوماً كانوا يتحجرون أرضاً ثم يدعونها لا يحيونها » (٢٨) . .

وقد استمرت عملية إحياء الأرض بعد الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد سار

-
- (٢٠) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٧٣
(٢١) تنا : بفتح النون ، أي المكان ، أقام وقطن .
(٢٢) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٩٩
(٢٣) أنظر : نفسه ، ص ١٠٨
(٢٤) أنظر : نفسه ، ص ١٠٨
(٢٥) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٨٥
(٢٦) أنظر : نفسه ، ص ٨٥
(٢٧) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٦١
(٢٨) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٨٦ - ٨٧

الخليفة الراشدى الثالث عثمان بن عفان (٢٣ هـ - ٣٥ هـ - ٦٤٤ م - ٦٥٦ م) على خطة من سبقه فى عملية إحياء أرض الموات وزرعها. . . يروى أبو عبيد ، كتاب الأموال : « أن عثمان بن عفان أعطى عثمان بن أبي العاص الثقفى أرضاً فى البصرة ، وكانت أرضاً سبخة ، فقام عثمان بن أبي العاص بإحياءها وزرعها » (٢٩)

وبالرغم من إنشغال الخليفة الراشدى الرابع - على بن أبى طالب (٣٥ هـ - ٤٠ هـ - ٦٥٦ م - ٦٦١ م) بالحروب الأهلية ، لكنه أولى عناية بالزراعة ، وأصلاح الأرض المهملة وإحياءها ، فمن ذلك : « أن رجلاً جاء الى على بن أبى طالب فقال : أتيت أرضاً قد خربت ، وعجز عنها أهلها ، فكريت أنهاراً وزرعتها ، قال : كُلْ- هنيئاً ، وأتت مصلح غير مفسد ، ومعمّر غير مخرب » (٣٠) . . .

إعتمدت عملية احياء أرض الموات على جهود فردية محدودة يقوم بها صاحبها فى بادئ الأمر ولكن بعد أن دخلت مساحات واسعة من الأراض ضمن حضيرة العالم الاسلامي-وما فى هذه الاراض الواسعة من أنهار عظيمة كبيرة ، لذا فقد استوجب ذلك من الدولة أن تأخذ على عاتقها القيام بإنشاء مشاريع ري متعددة ، شملت كلا من العراق ، والجزيرة ، والشام ومصر . . . لذا اتجهت رعاية الخلفاء الراشدين وولاتهم ، صوب هذه الانهار ، من أجل السيطرة على مباحها فشرعوا فعلا بإنشاء مشاريع ري متعددة ، تناولت أولاً ، مسح الأراضي ، ومن ثم حفر الانهار والجداول ، وشق القنوات والترع ، وإنشاء القناطر والجسور ، والعناية بخصوبة التربة واستصلاح البطائح والمستنقعات . . .

مسح الأراضي :

إنجهدت سياسة عمر بن الخطاب الزراعيه ، نحو عملية هندسية ، تجلت فى مسح الأراضي الواسعة التى دخلت ضمن حضيرة العالم الاسلامى ، خاصة أراضي السواد (القسم الجنوبي من العراق) . . .

ومن الواضح أن عملية مسح الأراضي تحتاج الى دراية وخبرة فى معرفة طبيعة سطح الأرض وعلى حد قول عمر ! فقد بان لي الأمر ، فمن رجل له جزاله وعقل

(٢٩) أنظر: أبو عبيد ، كتاب الأموال ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، ص ٢٨٤ .

(٣٠) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٥٩ .

يضع الأرض مواضعها ، ويضع على العلوج ما يحتملون ؟؟ ... فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف ، وقالوا تبعته إلى أهم ذلك ، فان له بصراً وعقلاً ، فأسرخ إليه عمر فولاه مساحة أرض السواد (٣١) ...

وقد بعث عمر حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة ، وبعث عثمان بن حنيف على ما دونه (٣٢) ...

وبذلك عين عمر بن الخطاب هذين الخبيرين من الصحابة لمسح أراضي السواد ، ولأحصاء أهلها ، ولتقدير الخراج والجزية ، وأمرهما أن لا يحملوا أحداً فوق طاقته ... (٣٣)

وقد كان هذا هو المسح العام لأراضي السواد في خلافة عمر ، ويظهر أنه قد حدث مسحاً محلياً آخر ، فقد عين عمر أبا موسى الأشعري على ولاية البصرة سنة ست عشر ، ويقال سنة سبع عشر للهجرة ، فاستقرى كور دجلة ، فوجد أهلها مذعنين بالطاعة ، فأمر بمساحتها ، ووضع الخراج عليها على قدر إحتمالها ... (٣٤)

ورغم أن عمليتي المسح هذه ، كان الغرض منهما ، تحديد مقدار ضريبيتي الجزية والخراج وفرضهما ، إلا أنهما بطبيعة الحال ، قد كشفت عن طبيعة الأراضي ، والأنهار التي تجري فيها ، وأدت إلى معرفة المناطق التي تحتاج إلى حفر نهر أو إلى شق قناة ، أو إقامة سد أو قنطرة أو جسر ، وإلى التمييز بين الأراضي الخصبة وغير الخصبة ، إضافة إلى كرى الأنهار . ومعرفة أماكن بثوقها ، وإقامة المسينيات والبريدات عليها ... (٣٥) . . . مثال ذلك : أن عمر بن الخطاب بعث حذيفة بن اليمان لمسح السواد ، وإن حذيفة مسح سقي دجله . وقناطر حذيفة نسبت إليه ، وذلك أنه نزل عندها

(٣١) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٢٦ . وقد بلغت مساحة السواد ست وثلاثين ألف ألف (ست وثلاثين مليون) جريب . .

أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٦٨ .

(٣٢) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٢٦ .

(٣٣) أنظر : اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، النجف ، ١٩٣٩ ، ص ١٣٩ .

(٣٤) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٤١ .

(٣٥) البشوق : جمع بثق ، وهو ما يخرقه الماء في جانب النهر .

البريدات : في الاصطلاح ، مفاتيح الماء ، وهي فارسيه . . .

أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١١٠

ويقال حددها » (٣٦) ..

وقد ساهم بيت مال الدولة مساهمة فعالة في الصرف والاتفاق على إقامة مختلف مشاريع الري ، بما يحقق المصلحة العامة ، ويزيد من عملية الانتاج الزراعى . . وبهذا أصبح بيت المال أشبه بالبنوك الزراعية التى نشهدها فى الوقت الحاضر . . .

ونقتطف هنا بعض ما أشار إليه أبو يوسف - فى كتاب الخراج ، لنرى مدى هذه المساهمة ، خاصة فى أرض السواد . . . : « إذا إحتاج أهل السواد الى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم ، وكانت النفقة من بيت المال ، ومن أهل الخراج ، ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج . . . وأما الأنهار التى يجرونها أو (يكرونها) الى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورتابهم وبساتينهم ومباقلهم وما اشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ، ليس على بيت المال من ذلك شيء . . . وأما البثوق والمسنيات والبريدات التى تكون فى دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام ، فإن النفقة على هذا كله من بيت المال لا يحمل على أهل الخراج من ذلك شيء . . . لأن مصلحة هذا على الأمام خاصة . . . لأنه أمر عام لجميع المسلمين ، فإن النفقة عليه من بيت المال ، لأن عطب الأرضيين من هذا او شبهه ، إنما يدخل الضرر من ذلك على الخراج . . . » (٣٧)

وكما يشير أبو يوسف : « وعلى الأمام كرى النهر الأعظم الذى لعامة المسلمين إن إحتاج الى كرى ، وعليه أن يصلح مسناته إن خيف منه » (٣٨) ..
وهذه إشارة عامة تشمل كل بلد أو قطر يجرى فيه نهر عظيم . . . وإن عمر بن الخطاب كان يعجى السواد مع عدله فى أهل الخراج وإنصافه لهم ، ورفع الظلم عنهم (٣٩) ..

ولنقدم الآن عرضاً شاملاً مركزاً . ونظرة فاحصة عامة ، على ما أولاه الخلفاء الراشدون وولاتهم من رعاية كبيرة فى إقامة العديد من مشاريع الري ، شملت مختلف الأمصار الاسلامية .

(٣٦) أنظر : البلا ذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٧١ .

(٣٧) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١١٠ .

(٣٨) أنظر : نفسه ، ص ٩٧ .

(٣٩) أنظر : نفسه ، ص ١١١ .

ففي البصرة :

شكى الأحنف بن قيس أحد زعماء البصرة ، ضعف حالة البصرة وملوحة مياهها ، فأمر الخليفة عمر واليه أبو موسى الأشعري بحفر نهر فيها (٤٠) . . . وأمره أيضاً بحفر نهر آخر فيها ، وأن يجريه على يد معقل بن يسار المزني أحد أصحاب الرسول (ص) - فنسب إليه ، فقال الناس نهر معقل . . (٤١) . .

وقاد أبو موسى الأشعري نهر الأبله - موضع الأجانه الى البصرة ، وكان شرب الناس قبل ذلك من مكان يقال له دير قاووس ، فوهته من دجلة ، فوق الأبله بأربعة فراسخ ، وكان يجري في سبخ الإعمارة على حافته (٤٢) . .

وفي الأنبار :

سأل دهاقينها سعد بن أبي وقاص ، أن يحفر لهم نهراً كانوا سألوا عظيم الفرس حفره لهم ، فكتب الى سعد بن عمرو بن حرام يأمره بحفره لهم ، فجمع الرجال لذلك فحفره ، حتى إنتهوا الى جبل لم يمكنه شقه فتركوه (٤٣) .

(٤٠) أنظر : ابن الفقيه ، كتاب مختصر البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ ، ص ١٩٨ ، والخربطلى ، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٣٨ .

(٤١) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٥٢ . وفي رواية أخرى للبلاذري ، أن حفر هذا النهر قد تم على يد زياد بن أبيه . . .

(٤٢) أنظر : نفسه ، ص ٣٥٢ . وكان لدجلة العواء - وهي دجلة البصرة ، خور ، والخور طريق للماء لم يجره أحد ، يجري فيه ماء الأمطار إليها ، وبتراجع ماؤها فيه عند المد وينضب في الجزر . . . وكان طوله قدر فرسخ ، وكان لحدده مما يلي البصرة غورة واسعة تسمى في الجاهلية الأجانه ، وسمته العرب في الاسلام الجزارة ، وهو على مقدار ثلاثة فراسخ من البصرة بالذرع ، الذي يكون نهر الأبله كله أربعة فراسخ ، فلما أمر عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعري أن يحفر لأهل البصرة نهراً ، ابتدأ الحفر من الأجانه ، وقاده ثلاثة فراسخ حتى بلغ به البصرة ، فصار طول نهر الأبله أربعة فراسخ . . .

أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٥٣ . .

(٤٣) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٧٣ . .

ولما ولي الحجاج العراق جمع الفعلة من كل ناحية وقال لقوامه : أنظروا الى قيمة ما يأكل رجل من الخفارين في اليوم ، فان كان وزنه مثل وزن ما يقطع فلا تمتنعوا من الحفر . . فانفقوا عليه حتى استتموه ، فنسب ذلك الجبل الى الحجاج ، ونسب النهر الى سعد بن عمرو بن حرام .

أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ . . .

وفي مصر :

أولى عمرو بن العاص إهتماماً كبيراً بالشؤون الزراعية تجلت في حفر الأنهار ، وشق القنوات ، وإقامة السدود والخزانات ، ونصب آلات لقياس مياه النيل (Nilo Meter) . . وكان عمرو بن العاص قد استشار أحد بطارقة مصر يدعى « بنجامين » ويقال « المقوقس » ، عن أفضل الطرق لضمان السيطرة على البلاد ، وزيادة غلاته الزراعية ، وكان الجواب القيام بتنفيذ الشروط الآتية :

١ - أن تكون جباية الضرائب في وقتها المعين . . وفي نهاية كل فصل زراعى . . . وأن لا تجبى أية ضريبة بعد ذلك .

٢ - عدم تعيين عمال قساة . .

٣ - أن تشق القنوات في البلاد سنوياً ، ويجدد إصلاح السدود والخزانات فيها (٤٤) . . .

ولهذا ، كان عمرو بن العاص يبعث بعزية مصر الى عمر بن الخطاب ، ويبقى قسماً منها لشق القنوات ، وصيانة الجسور والسدود (٤٥) كما قام عمرو بن العاص بنصب مقاييس على نهر النيل ، أحدهما في أسوان ، والآخر في حلوان (٤٥) . . .

وفي الجزيرة الفراتية :

وقد كان من جملة شروط عياض بن غنم - عامل عمر بن الخطاب - على أهل الرها إصلاح الجسور والطرق فيها . . (٤٦) . . .

وفي سواد العراق :

فقد سبق أن أشرنا - الى القناطر المنسوبة الى حذيفة بن اليمان الذى بعثه عمر ابن الخطاب لمسح كور دجلة (٤٧)

(٤٤) أنظر : المقرئى ، الخطط والآثار ، ج١ ، القاهرة ، ص ١٢٧ .

See, Butler , the Arab Conquest of Egypt Oxford, 1902, P. 455.

وهذا دليل على مساهمة بيت المال المحلى فى مشاريع الري .

(٤٥) أنظر : المقرئى ، الخطط والآثار ، ج١ ، ص ٥٨ .

(٤٦) أنظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٧٨ - ١٧٩

(٤٧) أنظر : ماجاء فى أعلا هامش (٣٦)

وفي خلافة عثمان بن عفان :

استمرت عملياته حفر الأنهار ، وشق القنوات ، وإقامة القناطر والجسور . . . ففي خلافته تم إنجاز حفر نهر الأبله في البصرة الذي اشرنا الى حفره في ولاية أبي موسى الأشعري . . . فقد أشار عثمان على عبد الله بن عامر - والي البصرة - أن ينفذ حفر نهر أبله من حيث إنظم حتى يبلغ به البصرة . . . ولما شخص بن عامر الى خراسان واستخلف زياد بن أبي سفيان ، أقرّ حفر أبي موسى الأشعري على حاله ، وحفر النهر من حيث إنظم حتى بلغ به البصرة ، وولى ذلك عبدالرحمن بن أبي بكره (٤٨) . .

وفي البصرة أيضاً ، حفر عبدالله بن عامر نهره الذي عند دار فيل ، وهو الذي يعرف بنهر الأساورة ، وقال بعضهم الأساورة حفروه (٤٩) . . وفيها أيضاً . . أن عبدالله بن عامر أقطع عبدالله بن عمير بن عمرو بن مالك الليثي ، وهو أخوه لأمه دجاجة بنت اسماء بن الصلت السلمي ثمانية آلاف جريب ، فحفر لها النهر الذي يعرف بنهر ابن عميره (٥٠) . .

وفي الجزيرة :

حيث كان بها جسر منبج ، ولم يكن الجسر يومئذ ، إنما أتخذ في خلافة عثمان . . . *

وفي سواد العراق :

أقام جابر المزنّي قنطرة فيه . وكان عاملاً لعثمان بن عفان على الخراج (٥١) . . .

ولا يقل الخليفة الراشدي الرابع - علي بن أبي طالب - أهمية عمّن سبقه من الخلفاء الراشدين ، في تشجيع الزراعة وإحياء الأرض ، وإقامة مشاريع الري ، تمثلت في حفر الأنهار ، ونفقد أراضي السواد وكوره ، وأنهاره من دجاة والفرات . . . بشير

(٤٨) أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص ٣٥١ .

(٤٩) أنظر : نفسه ، ص ٣٥٣ ، و ٣٦٦ .

(٥٠) أنظر : نفسه ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(* *) أنظر : نفسه ، ص ١٥٥ .

(٥١) أنظر : نفسه ، ص ١٥٥ .

اليعقوبي : الى أن على بن أبي طالب أمر واليه قرضه بن كعب الأنصاري بحفر نهر لأهل الذمة (٥٢) . . وبالرغم من أن اليعقوبي لم يذكر اسم هذا النهر ومكان حفره ، لكنه يشكل دليلاً على مدى إهتمام على بن أبي طالب بأهل الذمة من جهة ، وحفر الأنهار من جهة أخرى . .

ومن مظاهر إهتمام علي بأرض السواد وكوره وأنهازه . نجد - كما يشير الى ذلك أبو يوسف - أن علي بن أبي طالب كتب الى كعب بن مالك وهو عامله : أما بعد فاستخلف على عملك ، وأخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض السواد كورة كورة ، فتسألهم عن عملهم . وتنظر في سيرتهم ، حتى تمر بمن كان منهم فيما دجلة والفرات ، ثم إرجع الى البهقيباذات (٥٣) ، فتولي معونتها ، وإعمل بطاقة الله فيما ولا منها . . (٥٤) . .

لم تقف عملية إنشاء العديد من مشاريع الري خلال العهد الراشدي عند حد ، وإذما استمرت وعلى نطاق أوسع وإهتمام أكثر ، حتى بلغت ذروتها خلال العهد الأموي . . حيث شهد هذا العصر نشاطاً زراعياً واسعاً في مجال مسح الأراضي وشؤون الري . . فلا غروة والحالة هذه ، أن يعتبره بعض المؤرخين المحدثين استمراراً للنظام الراشدي ، وممهداً للنظام العباسي (٥٥)

مشاريع الري خلال العهد الأموي (٤٠ هـ - ١٣٢ هـ - ٦٦١ م - ٧٥٠ م)

مسح الأراضي :

سبق أن ذكرت . أن الخليفة الراشدي الثاني - عمر بن الخطاب - قام بوضع الأسس الأولى في عملية مسح الأراضي . . . وقد تميزت مسوحاته الأرضية باتجاهين رئيسيين :

الاتجاه الأول : ويتمثل بالمسح المحلي :

وهو ما قام به أبو موسى الأشعري - والي عمر على البصرة - في مسح كور دجلة

(٥٢) أنظر : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ليدن ، ١٨٨١ - ١٨٨٢ ، ص ٢٤٠ .

(٥٣) بهقيباذ ، اسم ثلاث كور ، وسط العراق بين دجلة والفرات ، منسوبة الى قباذ بن فيروز والد أنوشروان .

أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١١٨ .

(٥٤) أنظر : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ١١٨ .

(٥٥) أنظر : الدكتور عبد العزيز الدوري ، النظم الاسلاميه ، بغداد ١٩٥٠ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

عام ١٦ للهجرة .

الاتجاه الثاني : ويتمثل بالمسح العام :

وهو ما قام به عثمان بن حنيف ، وحذيفة بن اليمان ، اللذان بعثهما عمر ابن الخطاب لمسح أرض السواد . . .

وقد أخذ الأمويون بمسوحات عسر ، وعملوا على توسيعها وتطويرها ، وإبتكروا وحدات قياسية جديدة : كان لها أثرها الكبير في تحديد المساحات الأرضية . . .

وقد تميزت مسوحات الأمويين — أيضاً — بإتجاهين أساسيين :

الاتجاه الأول : المسح المحلي :

ويتمثل بما قام به كل من زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف الثقفي من عملية مسح الأراضي التي تركزت حول منطقة السواد . . وقد إبتكر زياد وحدة قياسية دعت « بالذراع الزيادي » (٥٦) ويشير «لو ككارد» الى ذلك بقوله : « ان هذين العاملين — زياد والحجاج — يستحقان كل تقدير وإعجاب في استعمالهما لهذه الوحدة المساحية في تنظيم أراضي هذا الأقليم » (٥٧)

ومن المسوحات المحلية الأخرى : تلك التي قام بها عبيد الله بن الحجاج بمسح أرض مصر : فوجد أن مساحتها تبلغ مائة مايون فدان (٥٨) . . وقد أدت عملية المسح هذه إلى الزيادة في خراج مصر (٥٩)

الفدان :

وهو مقياس المساحة المصري المفضل ، كان يساوي حسب قول القلقشندي (٤٠٠)

(٥٦) الذراع الزيادي : ذراع عرفت في صدر الاسلام ، وبها مسح زياد بن أبيه ، أرض العراق ، وهي عين ذراع الملك أو الذراع الهاشمي الكبرى ، أي تساوى وفق حساباتنا ٦٦,٥ سم . . .
أنظر : فالتزهينس ، المكايل والأوزان الاسلاميه ، ترجمة الدكتور كامل العسل ، منشورات الجامعة الأردنية ، ١٩٧٠ ، ص ٨٨ .

See, F. Lokke Gaard, Islamic Taxation, Copen Hagen, 1958, (٥٧)
PP., 112-113.

(٥٨) أنظر : المقریزی ، الخطل والآثار ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٥٩) أنظر : نفسه ، ج ١ ، ص ٩٩ .

قصبة ، والقصبة تساوي ٣٩٩ سم ، فيجوز لنا أن نقدر مساحة الفدان في العصور الوسطى ،
بـ (٦٣٦٨ م ٢) . *

الانجاء الثاني : المسح العام :

ويتجلى بما قام به عمر بن هبيرة بمسح عام لمنطقة السواد في خلافة يزيد
ابن عبد الملك . . « فقد كتب يزيد بن عبد الملك الى عمر بن هبيرة بمسح السواد ،
فمسحه سنة ١٠٥ للهجرة ، ووضع على النخل والشجر ، وأضر بأهل الخراج ووضع
على التائه ، وما كان يؤخذ من النيروز والمهرجان (٦٠) . . . ويشير البلاذري الى عملية
المسح هذه ، فيذكر : « أن الخليفة يزيد بن عبد الملك كتب الى عمر بن هبيرة - واليه
على العراق - أنه ليست لأمير المؤمنين بأرض العرب خرصة - فسر على القطائع ،
فخذ فضولها لأمير المؤمنين - فجعل عمر يأتي القطيعة فيسأل عنها ثم يمسحها . . » (٦١)

ورغم أن عملية المسوحات الأموية هذه ، كانت بدوافع مالية . ولكنها كانت
تؤدي في الوقت نفسه الى معرفة طوبغرافية الأرض ، والأماكن التي يمكن إنشاء
مشاريع ري متعددة عليها ، خاصة وإن عماد الدولة المالي ، كان قائماً على استصلاح
الأراضي . وزيادة الانتاج الزراعي . .

وقد وسع الخلفاء الأمويون وولاتهم ، وطوّروا مشاريع الري التي وضعت اسمها
خلال العهد الراشدي ، فقد شهد العصر الأموي نشاطاً واسعاً في هذا المجال . تجلى
ذلك في حفر الأنهار ، وشق القنوات والجداول : وإقامة السدود والمستنات ، وأحواض
المياه ، وإنشاء الجسور والقناطر . ونصب آلات مقاييس الماء . .

وفي نطاق حفر الأنهار ، وشق القنوات والجداول : فسوف نعرض ما كان قد
شرع به خلفاء بني أمية وولاتهم ، وما قد نفذوه في كل مصر من الأمصار الاسلامية
في هذا المضمار وفقاً للتسلسل الزمني . . .

ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان . وولاية عامله زياد بن أبيه ، بذلت جهود كبيرة

(*) ينظر : فالترهينز ، المكاييل والأوزان في الاسلام ، ترجمة الدكتور كامل المسلي ، عمان ،

١٩٧٠ م . ص : ٩٧ - ٩٨ .

(٦٠) أنظر : اليعقوبي - تاريخ ، ج٣ ، ص ٥٧ .

(٦١) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

في هذا المجال . . .

ينسب الى زياد بن أبيه ، حفر أنهار عديدة في منطقة ولايته - البصرة . . فقد كان زياد قبل أن يوليه معاوية والياً على البصرة ، مسؤولاً عن الديوان وبيت المال في خلافة عثمان بن عفان . وقد بدأ نشاطه في حفر الأنهار فيها منذ ذلك الحين - كما اشرنا الى ذلك - . . .

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان ، استمر نشاط زياد في حفر الأنهار في البصرة . . وعن المدائني : أن المنذر بن الجارود العبدي ، كلم معاوية بن أبي سفيان في حضر نهر ثار ، فكتب الى زياد ، فحفر نهر معقل ، فلما فرغ منه ، وآراد فتحه ، بعث زياد معقل بن يسار ففتحه تبركاً به ، لانه من أصحاب رسول الله (ص) فقال الناس نهر « معقل » (٦٢)

كما تم في ولايته حفر أنهار عديدة نذكر منها : نهر دبيس ، نسب الى رجل يقال له دبيس ، وبشق الحيرى ، نسب الى نبطي من أهل الحيرة ، ويقال كان مولى لزياد ، ونهر امم حبيب ، نسب الى أم حبيب بنت زياد .

ونهر حرب ، نسب الى حرب بن سلم بن زياد ، ومنها أيضاً نهر مسلم نسب الى مسلم بن زياد أبي سفيان . ونهر مرة ، نسب الى مرة بن أبي عثمان مولى عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق ، وحفر زياد نهر البنات ، نسب الى بنات زياد ، حيث أقطع كل بنت منهن ستين جريباً . (٦٣) . .

وقد ساهم زياد بن أبيه في استصلاح بعض بطائح البصرة ، فقد إبتاع بطيحة من رجل أقطعه إياها معاوية ، بمائتي ألف درهم ، وحفر أنهارها ، وأقطع منها (٦٤) . . وبهذا أصبحت منطقة البصرة عبارة عن شبكة من الأنهار والقنوات والجداول ، فلا غرو والحالة هذه أن تنتعش الحياة الزراعية فيها ، وتصل وارداتها مع كورها في ولاية زياد الى ستين مليون درهم . . (٦٥) . . .

(٦٢) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٣٥٢ .

(٦٣) أنظر : نفسه ، ص ٣٥٣ - ٣٥٧ .

(٦٤) أنظر : نفسه ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٦٥) أنظر : الدكتور صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ،

١٩٥٣ ، ص ١٤٩ - ١٥٠ . عن البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، ص ٧٨٨ -

مخطوطة القاهرة .

وقد أولى الخليفة معاوية بن أبي سفيان عناية فائقة باستصلاح البطائح ، وذلك بإقامة السدود « المسنيات » -- وهي من مشاريع الري المهمة ، كما تشاهدها في الوقت الحاضر ، فقد عين مولاة عبد الله بن درّاج على خراج العراق ، فاستخرج له من الأرضين بالبطائح ما بلغت غلته خمسة ملايين درهم . وذلك أنه قطع القصب وغلب الماء بالمسنيات (٦٦) . .

ومن مشاريع الري الأخرى التي أنجزت في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وعلى يد بعض ولاته ، وقواده . ما كان قد تجلّى من إقامة الجسور والقناطر : ففي الكوفة بنى زياد بن أبيه قنطرة فيها . (٦٧)

وفي خراسان اتخذ عطاء بن السائب مولى بني الليث قناطر على ثلاثة أنهار من بلخ ، فقبل لها قناطر عطاء (٦٨) . .

وقد نشطت حركة مشاريع الري نشاطاً واسعاً في خلافتي عبد الملك بن مروان وإبنه الوليد . . وبذل ولاية هذين الخليفتين جهوداً كبيرة في هذا المضمار ، شملت مختلف الأمصار الإسلامية . . .

وكان الحجاج قبل اتخاذه واسطاً ، أباد نزول الصين من « كسكر » فحفّر نهر « الصين » . . (٦٩) ، وجمع له الفعلة ، وأمر أن يسلسلوا لثلاً يشذوا ويتبلطوا ، ثم

(٦٦) أنظر : البلا ذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٩١ . .

(٦٧) جاء في البلا ذرى : أن أول من بنى قنطرة الكوفة رجل من العباد من جعفى في الجاهلية ، ثم سقطت ، فاتخذ بنى موضعها جسراً ، ثم بناها في الاسلام زياد بن أبي سفيان ، ثم أحدثها فمر بن هبيرة أيام ولايته العراق ، ثم أصلحها خالد بن عبد الله القسرى ، واستوثق منها ، ثم يزيد بن عمر بن هبيرة . . .

أنظر : البلا ذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٨٥ .

(٦٨) وكان عطاء بن السائب في جيش قيس بن الهيثم السلمى ، الكى ولاد عبدالله بن عامر على خراسان في خلافة معاوية بن أبي سفيان . .

أنظر : البلا ذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠

(٦٩) « كسكر والصيني » : ناحيه واسعة ، قصبتها واسط القصب ، والتي بين الكوفة والبصرة . . ويحتمل أن نهر « الصين » ، سمى بهذا الاسم ، نسبة إلى موضعين في كسكر يسميان بالصين (الصين الأعلى والصين الأسفل) أو نسبة إلى بلدة تقع جنوب واسط يقال لها الصيني . .

أنظر : ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ / ٤٤٤ ، ٤ / ٢٧٤ - ٢٧٥ . والبلا ذرى ، فتوح البلدان ، ص ٢٨٨ .

بدا له ، فأخذت واسطاً ، فترلها ، وإحتفر النيل والزابى . . . وأحيا ما على هذين النهرين من الأرضين ، وأحدث المدينة التى تعرف بالنيل ومصرها . . (٧٠)

وقد أكمل الحجاج بن يوسف حفر نهر الأنبار (٧١) . . . حيث جمع الفعلة من كل ناحية ، وقال لقوامه : أنظروا الى قيمة ما يأكل كل رجل من الحفارين فى اليوم ، فإن كان وزنه مثل وزن ما يقلع فلا تحتنعوا من الحفر . . . فأنفقوا عليه حتى استتموه ، فنسب ذلك الجبل الى الحجاج ، ونسب النهر الى سعد بن عمرو بن حرام (٧٢) . . .

وفى الموصل :

ولى عبد الملك بن مروان ابنه سعيد على الموصل ، فحفر سعيد نهراً فيها ، وإليه ينسب نهر سعيد بالموصل . . (٧٣) . . .

(٧٠) الزابى : وقد سمي الزابى بهذا الاسم ، لأخذه من الزابى القديم . . . أما النيل : فكان يأخذ من الفرات الى دجلة فى منطقته تقع شمال بابل ، وقد سماه الحجاج باسم النيل ، تيمناً بنهر النيل فى مصر . . . وكان جرى الى الشرق ابتداء من مخرجه ، ويمر بقرى عامرة كثيرة ، وتتفرع منه أنهاراً صغيرة متعددة وقد أعاد الحجاج حفر نهر (صراة جاماسب) عن يسار النيل ، وهناك بنى مدينة النيل التى تقع بين أرض بنگداد والكوفة . وكانت أجمل مدينة فى الناحية كلها . . وأطلالها اليوم بين المدحيتيه (قرب الفرات) والنعمانيه (على دجلة) تسمى « بتل النيل » ، « والنيليات » و « النيليه » . . وقد فحصتها دائرة الآثار العراقيه سنه ١٩٤٥ ، فوجدت على إمتداد جانبي النهر المدرس تلولا أثرية ، وبقايا أبنية ، هي معالم القرى التى كانت تقوم على هذا النهر . . وكان عرض النهر نحو ثلاثين متراً . . وتدل البقايا الأثرية على أن المدينة ظلت عامرة الى العهد الإيلخانى . .

أنظر : البلا ذرى ، فتوح ، ص ٢٨٨ ، وياقوت ، معجم البلدان ، ٣ / ٣٧٩ ، و ٨٨٣ / ٨٩١ ، ولسترنج ، بلدان الخلافة الشرقيه ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بنگداد ، ١٩٥٤ ، ص ٩٨ - ٩٩ . .

وأنظر : عبد الواحد ذنون طه ، العراق فى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى ، رسالة ماجستير غير المنشورة ، بنگداد ، مايس ، ١٩٧٣ ، ص ٢١٠ . . .

(٧١) - ويعود حفر هذا النهر الى سعد بن أبى وقاص ، حيث أن دهاقين الأنبار سألوه بحفر نهر لهم ، كانوا سألو عظيم أفرس بحفره لهم . . . فكتب الى سعد بن عمرو بن يأمره بحفره ، فجمع الرجال لذلك فحفروه ، حتى انتهوا الى جبل لم يمكنه شقه فتركوه . .

أنظر : البلا ذرى ، فتوح ، ص ٢٧٣ .

(٧٢) أنظر : البلا ذرى ، فتوح ، ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٧٣) أنظر : نفسه ، ص ٣٢٨ .

وفي الجزيرة :

قام سعيد بن عبد الملك أيضاً في خلافة أخيه الوليد بحفر نهر فيها ، وعمر ما هناك من الأراضي ، وكان يقال له سعيد الخير (٧٤) . .

وفي بالس والحد الأعلى :

قام مسلمة بن عبد الملك بحفر نهر من الفرات ، يسقى قرى هذه المنطقة ، فنسب إليه النهر المعروف بنهر مسلمة . . (٧٥)

ويظهر أن مسلمة بن عبد الملك أقام في هذه المنطقة خزاناً كبيراً للماء . . باغت مساحته مائتي ذراع مربع ، وبعمق عشرين ذراعاً ، وأحاطه بسور من الحجارة ، وكان هذا الخزان يمتلئ بالماء كل عام ، ويكفى لسقي الأراضي المحيطة به . (٧٦) . . .

وكان مسلمة بن عبد الملك ، قد أنفق ثلاثة ملايين درهم في خلافة أخيه الوليد وولاية الحجاج ، فاستخرج أرضين من البطائح ، وحفر السيبن ، وتألف الأكره والمزارعين ، وعمر تلك الأرضين (٧٧) . .

وفي مصر :

أقام عبد العزيز بن مروان مقياساً للماء في منطقة الجزيرة (بين الفسطاط والجيزة) . وكانت تدعى جزيرة السيناء . . وقد استعمله أسامة بن زيد التنوخي . . وفي مصر أيضاً بنى عبد العزيز بن مروان قنطرة في الفسطاط (في منطقة الحمراء القصوى

(٧٤) أنظر : نفسه ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٧٥) وكان مسلمة قد توجه غازياً للروم ، من نحو الثغور الجزيه ، فعسكر ببالس . وكانت بالس والقرى المنسوبة إليها في حدها الأعلى والأوسط والأسفل مركزاً لقرى هذه المنطقة . وتقع بالس إلى قرب الرقة ، وعلى ضفة الفرات الغربية ، عند سهول صفين . .
أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٦ .

وأنظر : See, Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge, 1930, P. 107.

وأنظر : محمد جاسم المشهداني - الجزيرة الفراتية والموصل ، رسالة ماجستير غير المنشورة ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ص ٩٣ .

(٧٦) See, Le Strange, the Lands of the Eastren Caliphate, P. 105.

(٧٧) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٣ - ١٨٤

(سنة ٦٩ هـ - ٦٨٨ م) ، وكتب اسمه عليها ، كما قام بتشيد قناطر أخرى فيها (٧٨) . . .

وفي الحجاز :

أمر الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز - واليه على المدينة - بحفر آبار فيها ، وتم ذلك عام ٨٨ هـ - ٧٠٣ م . (٧٩) . . .

وفي فلسطين :

بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة ومصرها ، وإحتفر لأهل الرملة قناتهم التي تدعى برده ، وإحتفر آباراً فيها (٨٠) . . .

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، أولى عناية فائقة بمساريع الري ، لما رأى فيها من أهمية كبيرة فى إحياء الأرض واستصلاحها . . . وكان يوجه كتبه الى ولاته يحثهم فيها على شق القنوات والجداول ، والاهتمام بالفلاح ورعايته . . . (٨١) . . .

وفي خلافته ، تم حفر نهر فى البصرة ، حيث كتب الى عدي بن آطاة ، فحفر هذا النهر الذى يعرف بنهر عدي (٨٢) . . .

وفي البصرة أيضاً حفر يزيد بن المهلب نهره المعروف بنهر يزيد . . (٨٣) . .

وفي البليقان (من أمينيا) حفر عدي بن عميرة الذى ولاه عمر بن عبد العزيز عليها النهر المعروف بنهر عدي بالبليقان (٨٤) . . .

ومن مظاهر إهتمام عمر بن عبد العزيز بالماء ، من الجداول والآبار ، نشير هنا الى ما أورد به يحيى بن آدم فى كتاب الخراج للدلالة على ذلك . . .

فيروى عن قتادة قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، من غلب الماء على شيء فهو

(٧٨) أنظر : المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ ، ص ٢١٣ .

(٧٩) أنظر : الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة ليدن ، ج ٢ ، ص ١١٩٦ . .

(٨٠) أنظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٤٦ .

(٨١) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٥٩ ، ٨٨ ، ٤٨ .

(٨٢) أنظر : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ٣٦٣ .

(٨٣) أنظر : نفسه ، ص ٣٥٨ .

(٨٤) أنظر : نفسه ، ص ٢٠٨ .

له « (٨٥) . . وعن زريق بن حكيم قال : قرأت كتاب عمر بن بن عبد العزيز الى أبي : أن أجّر لهم ما أحيوا ببنيان أو حرث . (٨٦) . .

وكان يروى عن عمر بن عبد العزيز أحاديث في تحديد مساحة حريم بشر الماشية . . تمشياً مع سياسة الرسول (ص) بهذا الخصوص . . . فمن ذلك قوله : « حريم كل بشر عادية من بشر الماشية خمسون ذراعاً من كل ناحية سواء فيها . . . وحریم كل بشر محدثه غير عادية من بشر الماشية خمسة وعشرون ذراعاً (٨٧) . . .

ويظهر أن حركة انشاء مشاريع الري قد بلغت أوج عزها وتقدمها في خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ هـ - ١٢٥ هـ - ٧٢٤ - ٧٤٣ م) ولعل ذلك يعزى الى ميل هذا الخليفة ورغبته في إمتلاك الضياع الواسعة ، وما كانت تدر عليه من غلات وواردات طائلة . . . وقد ساعد على ذلك طول مدة خلافته البالغة حوالي عشرين عاماً إضافة إلى ما كان يبديه ولانه من نشاط واسع في هذا الميدان ، وقد شملت مختلف الأمصار الاسلامية . . .

ففي خلافة هشام ، تم استصلاح مساحات واسعة من البطائح ، واستخراج الأرضين ، وذلك بتجفيف المستنقعات وعمل المستنقات ، وقد قام بهذا العمل حسان التبتلي في ولاية خالد بن عبد الله القسري . (٨٨)

وكان الخليفة هشام نفسه يولى عناية كبيرة باستحداث الضياع وحفر الأنهار . .

ففي الجزيرة الفراتية

استحدث الرصافة ، والتي كانت تدعى برصافة هشام ، وكان هشام ينزل قبلها الزيتونه ، وحفر الهني والمرى ، واستخرج الضيعة التي تعرف بالهني والمرى (٨٩) . . .

(٨٥) أنظر : يحيى بن آدم ، كتاب الخراج ، ص ٨٨

(٨٦) أنظر : نفسه ، ص ٨٨

(٨٧) أنظر : نفسه ، ص ١٠٣ .

البشر العادية : من العادي ، الشيء القديم ، نسبة الى عاد

البشر المحدثه : وهي التي حفرت حديثاً . . .

أنظر نفسه : هامش رقم (٦) و (٧) من ص ١٠١

(٨٨) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٩١ .

(٨٩) أنظر : نفسه ، ص ١٨٤ .

وفي الموصل :

قام الحر بن يوسف - بعد أن أخذ موافقة الخليفة - بحفر نهر المكشوف فيها ،
ليستقى منه أهلها ، وذلك لبعده دجلة عنها (٩٠) . . وكان قد بدأ العمل فيه عام ١٠٧ هـ
وقد أتمه الوليد بن تليد العباسي في عام ١٢١ هـ . . (٩١)

ويبدو أن العراق (٩٢) ، بمدنه الثلاث : الكوفة ، وواسط ، والبصرة . . كان المحور
الأساس الذي تركزت فيه حركة انشاء مشاريع الري المتعددة من حفر الأنهار ، وشق
القنوات والجداول ، وإقامة السدود والقناطر . . وقد حظي بنصيب وافر في هذا الميدان
في خلافة هشام بن عبد الملك وولاية خالد بن عبد الله القسري . . .

ففي الكوفة :

قام خالد بن عبد الله القسري بحفر نهر الجامع فيها (٩٣) كما أصلح قنطرتها ،
واستوثق منها ، وهي القنطرة التي أحدثها عمر بن هبيرة بن معية الفيزاري أيام ولايته
العراق . . (٩٤) . .

كما كتب خالد القسري الى هشام بن عبد الملك ، يستأذنه في عمل قنطرة على
دجلة ، فكتب إليه هشام ، لو كان هذا ممكناً لسبق إليه الفرس ، فراجعه ، فكتب إليه ،
إن كنت متيقناً أنها تتم فأعملها فعملها ، وأعظم النفقة عليها ، فلم يلبث أن قطعها الماء ،
فأغرمه هشام ما كان أنفق عليها (٩٥) . . .

(٩٠) أنظر : الأزدي ، تاريخ الموصل ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٢٦ .

(٩١) أنظر : نفسه ، ص ١٦٤ . . وقد بلغ مقدار ما صرف على حفر هذا النهر ثمانية ملايين

درهم ، وهي من خراج الموصل للمدة المحصورة بين عام ١٠٨ هـ - ١٢١ هـ ، وكله

صرف على حفر هذا النهر ، وعمل الأرحاء (الطواحين) عليه . .

أنظر : نفسه ، ص ٤٣ .

وأنظر : عبد المجيد محمد صالح الكبيسي ، عصر هشام بن عبد الملك ، رسالة ماجستير غير

المنشورة ، بغداد ، ١٩٧٣ ، ص ٣٠٢ .

(٩٢) أطلق لفظ « الجزيرة » على القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين ، وأطلق لفظ « العراق » على

القسم الجنوبي ، كما أطلق على هذا القسم اسم « السواد » . . أنظر : الدكتور حسين أمين - تاريخ

العراق في العصر السلجوقي ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ١٠ - ١٤

(٩٣) أنظر : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٨٤ .

(٩٤) أنظر : نفسه ، ص ٢٨٤

(٩٤) أنظر : نفسه ، ص ٢٨٤

(٩٥) أنظر : نفسه ، ص ٢١٩

وفى البصرة :

أخذ بعض الأفراد يستثمرون رؤوس أموالهم فى حفر الأنهار . وإقامة السدود والقناطر فيها ، فمن ذلك ما قام به بشر بن عبيد الله بن أبى بكره ، من حفر المرغاب ، والسواقي ، والمعترضات بالتغلب على الماء ، وكان ذلك فى ولاية خالد بن عبد الله القسرى (٩٦) . . .

وفى البصرة أيضاً : إحتفر كثير بن عبد الله السلمى ، وهو أبو العاج ، وعامل يوسف بن عمر الثقفى على البصرة - نهراً من نهر لابن عتبة الى الخستل فنسب إليه (٩٧) . .

واشتهر خالد بن عبد الله القسرى بحفر نهر المبارك ، وقد بلغت نفقات حفره اثنى عشر مليون درهم (٩٨) . . . وكان لحفر هذا النهر - فى أول الأمر - أثره الطيب فى نفوس الناس ، وإنه كان يسقى مساحات واسعة من أراضى السواد ، والمناطق المحصورة بين واسط والبصرة ، وبهذا جاء فيه قول الفرزدق الشاعر المشهور (٩٩)

أعطى خليفته بقوة خالـ	نهراً يفيض له على الانهار
إن المبارك كاسمه يسقى به	حرث السواد وناعم الجبار
وكان دجلة حين أقبل مدها	ناب يمد له بحبل قطار

وقد كان لعظم نفقات خالد على حفر هذا النهر ، وما أصابه من خراب عاملاً من عوامل نقمة الخليفة هشام عليه . . حتى هجاه الفرزدق والذي كان قد مدحه من قبل حيث قال :

أهلك مال الله فى غير حقه على نهرك المشثوم غير المبارك (١٠٠)

وبالرغم من أن الخلافة الأموية ، أخذت تسير نحو الضعف والانحلال يعد خلافة هشام بن عبد الملك ، إلا أنه كانت تلوح فى الأفق بعض بوادر الاهتمام بإقامة بعض

(٩٦) أنظر : نفسه ، ص ٣٥٨

(٩٧) أنظر : نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٩٨) أنظر : عبد المجيد محمد صالح الكبيسي ، عصر هشام بن عبد الملك ، ص ٣٠٢ . . .

(٩٩) أنظر : البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٨٩ ، والأصفهاني ، الأغاني ، بيروت ، ١٩٥٦ ،

ج ١٩ ، ص ٤٥

(١٠٠) أنظر : عبد المجيد الكبيسي ، عصر هشام بن الملك ، ص ٢٩٢

مشاريع الري ، من إقامة جسر ، أو حفر نهر . . نذكر منها ما تم في خلافة الوليد ابن يزيد بن عبد الملك المقتول من تشييد جسر على طريق أذنه من المصيصة (من الثغور الشامية) ، وذلك سنة خمس وعشرين ومائه ، ويدعى جسر الوليد (١٠١) . . .

وكذلك ما تم من حفر نهر في البصرة في ولاية عبدالله بن عمر بن عبد العزيز — عامل العراق من قبل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك عام ١٢٦ هـ — ٧٤٤ م . وقد عرف بنهر عمر (١٠٢) . .

وأخيراً وليس أخراً ، نستطيع أن ندرك من خلال هذا البحث التاريخي العامي المركز ، مدى إهتمام الرسول الأعظم وخلفاءه وولاته من بعده ، في القيام بإنشاء العديد من مشاريع الري ، والتي شملت مختلف الأمصار الاسلامية . . . إلا أن العراق — والعراق بالذات ، كان المحور ، وكان مركز الرعاية والاهتمام . . ذلك لما أسبغت عليه الطبيعة من نهري عظيمين هما دجلة والفرات ، ولما أنعمت عليه من أراض واسعة شاسعة تميزت بخصوبة تربتها ، وصلاحياتها للزراعة . .

وبالتالي : أرجو أن يكون في هذا البحث أملاً وتطلعاً لكل دارس وباحث لأن يكشف — باستمرار — عن مكتونات كنوز أمتنا العربية — في العديد من مجالاتها التراثية الحية ، حتى يبرز وجهها الحضاري المشرق ، فنبنى على ضوئها وهداياها قاعدة صلبة راسخة ، وسلماً متيناً ثابتاً نرقى به أعلا درجات الرقي والتقدم .

الدكتور عواد مجيد الأعظمي
كلية الآداب — جامعة بغداد

(١٠١) أنظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٧٢ .

(١٠٢) أنظر : نفسه ، ص ٣٦٣ .